

ملاحح خيالفة فف مآآارات من همزة البوصيري

أديكيليكن عزيز لطيف

قسم اللغة العربية، جامعة إلورن

adekilekun.al@unilorin.edu.ng

المقدمة:

إن ممن شاع وعلاصيتهم في عالم المدح النبوي، شرف الدين محمد البوصيري. فقد عولع به حيناً لآخر وأبقت له الأزمان ذكرى خالدة بمدحيه البردة والهمزية في مدح خير البرية، ففيهما وسّع الخيال، فانقادت الألفاظ والمعاني لقريحته. وفي كلّ منهما -البردة والهمزية- ألفاظ جذابة ومعاني خلافة وأخبار حققتها الأيام وحكم جرت مجرى الأمثال. وللدين نصيب وافر من شعر البوصيري خلاف ما عليه كثيرون من فحول الشعر، كامرئ القيس والمتنبي وأبي نواس. ومن هذا المنطلق، ترمي هذه المقالة المتواضعة إلى النظر في قوة الخيال عبر الأبيات المختارة من الهمزية التي يعجب بها الدهر ويتمتع بها العصر. ولعل هذه الورقة، تلفت أنظار المحييين للشعر العربي -وخاصة المدح- إلى سمة تعتبر من أروع سمات الشعر الجيد.

وتنطبق المقالة على النقاط الآتية:

- ترجمة حياة الشاعر
- المدلول اللغوي والاصطلاحي للخيال
- عرض المختارات من همزيتة وتحليلها
- ملاحح خيالية وألوان بلاغية
- الخاتمة.

ترجمة حياة الشاعر:

هو الكاتب الشاعر المتصوّف شرف الدين محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي البوصيري، كان أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص (كلتاها من قرى إقليم بني سويق بمصر). ولد بدلاص سنة ٦٠٨ هـ ونشأ ببوصير ثم انتقل إلى القاهرة وتعلّم العلوم العربية والأدب، وأنشأ الشعر البليغ في جدّه وهزله، وكتب الرسائل الأنيفة، واتخذ كتابة الدواوين صناعة، فتقلد مناصب كثيرة بالقاهرة والإقليم.^(١)

شاعريته:

نظم البوصيري الشعر منذ حداثة سنه، وله قصائد كثيرة. ويمتاز بالرصافة والجزالة، وجمال التعبير والحس المرهف وقوة العاطفة. واشتهر بمدائحه النبوية التي أجاد استعمال البديع فيها، كما برع في استخدام البيان، ولكن غلبت عليه المحسنات البديعية في غير تكلف، وهو ما أكسب شعره قوة ورصانة. وشاعريته متميزة لم تتوفر لكثير ممن خاضوا غمار المدائح النبوية والشعر الصوفي.^(٢) وقد جارى البوصيري في كثير من شعره شعراء عصره في استعمال الألفاظ المولدة، كما كانت له تجارب عديدة في الأهاجي المقذعة، ولكنه مال -بعد ذلك- إلى التمسك والزهد، واتجه إلى شعر المدائح النبوية.^(٣)

عني البوصيري بقراءة السيرة النبوية ومعرفة حقائق أخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) وجوامع سيرته العطرة، وأفرغ طاقته وأوقف شعره وفنه على مدح النبي وكان من ثمار مدائحه النبوية بائية الثلاث التي بدأ إحداها بقوله:

وافاك بالذنب العظيم المذنب ** خجلا تعف نفسه ويونب

آثار البوصيري الشعرية:

ترك البوصيري عددا كثيرا من القصائد والأشعار ضمها ديوانه الشعري الذي حققه محمد سيد كيلاني وطبع بالقاهرة سنة (١٤٣١هـ-١٩٠٠م) وقصيدته الشهيرة بالبردة "الكواكب الدرية في مدح خير البرية" والقصيدة "المضرية في مدح خير البرية" والقصيدة "الهمزية" و"ذخر المعاد" ولامية في الرد على اليهود والنصارى بعنوان "المخرج والمردود على النصارى واليهود".^(٤) توفي -رحمه الله- سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م بالإسكندرية، ودفن بجوار مسجد شيخه العارف بالله أبي العباس المرسي.^(٥)

المدلول اللغوي والاصطلاحي للخيال:

الخيال لغة "الطيف" وهو ما تشبه للمرء في اليقظة والمنام من صورة. ويعنى كذلك شخص الرجل وطلعته.^(٥)

وفي الاصطلاح، فإن الخيال أداة أساسية وعمدة متينة لتصوير العاطفة وصيها في قالب معتدل يؤثر به الشاعر في نفوس القارئ وأذهان المستمعين.^(٦)

عرض المختارات من همزته وتحليلها:

نص الأبيات المختارة:

... فتنزّه في ذاته ومعانيه
واملا السمع من محاسن يملئ
كل وصف له ابتداء به استو
سيد ضحكه التبسم والمشب
ما سوى خلقه التسميم ولا غي
رحمة كله وحزم وعزم
لا تحل البأساء منه عرى الصب
كرمت نفسه فما يخطر السو
عظمت نعمة الإله عليه
جهلت قومه عليه فأغضى
وسع العالمين علما وحلما

... استماعا إن عزّ منها اجتلاء
عليك الإنشاد والإنشاء
عب أخيار الفضل منه ابتداء
الى الهويناء ونومه الإغفاء
رمحياء الروضة الغناء
ووقار وعصمة وحياء
ولا تسحقه السراء
على قلبه ولا الفحشاء
فاستقلت لذكره العظماء
وأخو العلم دأبه الإغضاء
فهو بحر لم تعيه الأعباء^(٧)

تحليل الأبيات:

أخبر الشاعر فيما قبل هذه الأبيات عن أخت الرسول التي وجدها الصحابة في السبي حيث كانوا يسوقون السبي سوقا عنيفا، فلما اشتد الأمر عليها فقالت لهم بأنها أخت لنبيهم من الرضاعة فأتوا بها إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فمنّ عليها محمد. نثبت هذه في قول الشاعر:

من فضلا على هوزان إذ كا ** ن له قبل ذاك فهم رباء

وبعدما تخلّص الشاعر عن إخباره لهذا الصنع الصافي الذي صنعه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، دعا مخاطبه إلى الذي ترويه نفسه في صفات محمد (صلى الله عليه وسلم) وتلك هي الذات الشريفة وما تحتوي عليه من الفضائل الحميدة والمعاني العظيمة فقوله تنزّه في ذاته ومعانيه يعنى محاسنه الجميلة ومكارمه الجليلة، وهو يدعوا إلى التأثس بها عن طريق الاستماع والأصغاء إلى محاسن طلعة الرسول البديعية الحسن ومكارم ذاته إن كانت رؤيته مستحيلة.

وإذا كانت رؤيته مستحيلة، فأفد سمعك بالمدائح التي املتها الأناشيد والإنشاءات عن أخلاق الرسول الإلهية وأحواله العلية. ثم أخبر الشاعر في البيت الثالث أن كلّما ابتدأ بوصف له (صلى الله عليه وسلم) أدرك أنه قد بلغ أعلى الغايات وجمع كلّ الصفات الجميلة.

وقوله سيد "ضحكه التبسم والمشى" بحذف المبتدأ (هو) أي هو سيد العالمين. فقوله الشاعر كما يبدو مدح حقيقي، لأنه قد ذكر في برده الكلمة نفسها وقال:

محمد سيد الكونين والثقليد ** ن والفرقين من عرب ومن عجم

وهو سيد (صلى الله عليه وسلم) لا ينفث فوه إذا ضحك، فضحكه التبسم وهو أقل الضحك وأحسنه، وكذلك امتاز بمشي الهونا وهو يمشي بالسكينة والوقار والتواضع، فكلمة الهونا تصغير لكلمة "الهون". ولا ينعس الرسول نعاسها ثقيلًا حتى يحتلم بما لا يليق بالرسول مثله. وقوله:

رحمة كَّله وحزم وعزم ** ووقار وعصمة وحياء

يتضمن هذا البيت بعض أوصاف يتميز بها الممدوح "الرسول" فيرى الشاعر أن الرسول هو الرحمة بعينها وهو في كل حركاته وسكناته ذو شجاعة لا تقاوم، وذو بسالة وتحمل قوي وكانت الهيئة لا تنفك عنه طرفة عين وليس إنسانا عاديا، تقوده الأهواء وترعاه الشهوات فلا يتغلب على نفسه فيقترف الأثام صغيرها وكبيرها. وكان الرسول حياء يستحي من ربه حق الحياء، ويستحي من الناس حياء يحجبه من القدح في أعراض الناس. وفي قوله:

لا تحلّ البأساء منه عرى الصب ** رولا يستحقه السراء

يعبر الشاعر أن الرسول ثالث الصدر ومرتبب القلب فلا يجزع لنكنة حلت به ولا يغريه طيب الحال ولا يغتر بزخارف الدنيا الزائلة. وفي قوله أيضا:

كرمت نفسه فلا يخطر السوء ** على قلبه ولا الفحشاء

يعنى البوصيري أن النبي زكى القلب ونقي الخاطر بحيث لا يجد الشر إلى قلبه سبيلاً ولا ينال السوء في أعضائه موضعاً.

ثم أخبر البوصيري عن نعم الله التي أسبلها على حبيبه وذلك في قوله:

عظمت نعمة الإله عليه ** فاستقلت لذكره العظماء

ندرك أن الله من على نبيه بنعم لم يسبغها على غيره من الخلق، فأصبحت ذكرى الرسول ما لا يشق له غبار بين الأجلاء والأشراف.

جهلت قومه عليه فاغضى ** وأخو العلم دأبه الإغضاء

يبين المادح تمرد الكافرين على الرسول وإسائتهم إليه لجهلهم عن فضائل ومهمات بعث لها محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يقابلهم بما عملوه نحوه بل تجاوز عنهم وتحمل كل معاناة وأذى أتاه من عندهم. وهكذا دأب الصابرين فلا يسيؤون إلى من أساء إليهم.

وسع العالمين علما وحلما ** فهو بحر لم تعيه الأعباء

يعبر البوصيري عن غزارة وتعمق علم الرسول وصابره، فهو بحر متلاطم لا تضيق عليه الأحمال

الثقيلة.

ملاح خيالية وألوان بلاغية:

إن غاية البوصيري في همزته هي إظهار ما أحس به واختلج في قلبه من أوصاف وفضائل يتسم بها الرسول. فأخذ يحمل في صورة محسوسة حيناً وفي صورة معقولة حيناً آخر. ولا يخفى هذا عن الوعي من مستهل همزته إلى خاتمتها، وهذا ليتأثرو ويحسن القارئ أو السامع بما تأثر وأحس به البوصيري ليتجرد عمله الفني عن هيئة عادية، وأدى هذا بالبوصيري إلى استعمال ألوان بلاغية منبثقة من رموز خيالية. وتتجلى لنا هذه الصورة في عبارته الآتية:

فقوله "واملا السمع" دلالة على حسن الإنصات وتمام السكوت لما يلقيه وصف الشاعر لممدوحه. وفي عبارته يملها عليك الإنشاد والإنشاء "جناس ناقص".^(٨)

وعبارته في قوله "ما سوى خلقه النسيم" يظهر لنا جلياً أن الشاعر شبه خلق الرسول بالنسيم من حيث لينه وطيبه، ويعتبر هذا الوجه التشبيهي من أروع وأبلغ وجوه التشبيهات. وقوله الرّوضة الغناء" شبه الشاعر وجه الرسول بالروضة التي تتغرد حولها الطيور لما فيها من البهجة والنضارة. وإن دلّ هذا على شيء، فإنه يدل على أن رؤية الرسول فرح وارتياح القلوب، وقد خيل إلى المادح أن ممدوحه يستحق أن يكون وجهه روضة رطبة لرونقه ولينه، وأجاد البوصيري حين قسم خصال الرسول الحميدة في قوله:

رحمة كله وحزم وعزم ** ووقار وعصمة وحياء

فيظهر لنا أنه قسم خلق الرسول إلى ستة أقسام، كل قسم ملائم لشخصية الرسول، وكل قسم يستطيع أن ينفصل عن غيره دون إخلال بذاته الموصوف. وهذا من ألوان صحّة التقسيم، وهي أن يبني الشاعر بيتاً واحداً على أقسام تنتسب إلى وصف واحد، مثل ما فعله زهير في قوله:

يطعنهم ما ارتموا إذا اطعنوا ** ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا^(٩)

قسم زهير البيت على أقسام الحرب في مراتب اللقاء ثم ألحق بكل قسم ما يليه، والمعنى الذي قصده من تفضيل الممدوح.

وقد تخيل البوصيري أن صبر الرسول لا تزيله نكبة ولا تضعفه حادثة ولا يجعل حلول الرّخاء والفرح الرسول مرحاً ولا بترّاً. فقال:

لا تحل البأساء منه عرى الصب ** رولا تستحقه السراء

يشتمل هذا البيت على نوع من ألوان البديع، وهو "الطباق" يعني ذكر الشيء وضده، وهذا ملموس في عبارته "البأساء والسراء" وعبارته "عرى الصبر" فيه إيماء إلى تشبيه المعقول بالمحسوس حيث شبه قوة صبر الرسول بالعرى^(١٠) وندرك كذلك الطباق في عبارته "عظمت واستقلت" حيث جمع بين العظمة والقلّة، فأسند العظمة إلى نعمة الله على الرسول في صيته وذكره. ونلمس الجناس الناقص في عبارة البوصيري حيث يقول:

وسع العالمين علما وحلما ** فهو بحرٌ لم تعيه الأعباء
فالجمع بين العلم والحلم يعتبر جناسا ناقصا، وحيل إلى الشاعر أن ممدوحه واسع العلم
والجود بحيث لا تعجزه كثرة السائلين والجاحهم عليه فاطلق عليه كلمة البحر، لأن البحر لا ينقصه
الاغتراف منه، ووصف الرسول بالبحر، استعارة تصريحية. والرسول ليس بحراً حقيقياً، ولكنّه يتصف
به في علمه وجوده من حيث التوسع والعمق.^(١١)
الخاتمة:

يتضح خلال هذه الدراسة السابقة أن للخيال صوراً تبدو فيها ملاحح بلاغية وألوان فنية نحو
التشبيه والاستعارة والمجاز والبيدييات وغير ذلك. ولهذه الألوان دور فعّال في تصوير المعاني وإبراز
الحقائق ونقلها من شعور الأديب ووجدانه إلى القارئ أو المستمع فيحسّ بما أحسّ ويتأثر بما تأثر به.^(١٢)
ورأينا كيف وضع البوصيري أحاسيسه نحو الرسول في صورة خيالية شفافة ضمّن فيها بعض
ألوان بلاغية ممتعة في مدحه للرسول عبر همزيتة التي ظلّت نموذجاً حياً ومرآة عاكسة للمعاصرين
واللاحقين.
الهوامش:

- ١- أحمد المبارك الخزرجي الأنصاري، أجمل المدائح النبوية، دار الأنصار للطباعة والنشر والتوزيع، سنة
الطبع غير مذكورة، ص ١٥.
- ٢- صفحة إنترنت (كتاب شمس الشموش).
- ٣- صفحة إنترنت (كتاب شمس الشموش).
- ٤- صفحة إنترنت (كتاب شمس الشموش).
- ٥- أحمد المبارك الخزرجي الأنصار، أجمل المدائح النبوية...، ص ١٥.
- ٦- راجع شمس الشموش (صفحة إنترنت).
- ٧- المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الثانية والعشرون المكتبة الشرقية ساحة النجمة، ص-ب ١٩٨٦
بيروت-لبنان، ص: ٢٠٢.
- ٨- شركة مكتبة ومطبعة ألباني الحلبي وأولاده، قصائد المديح المرفوعة إلى الرسول عليه الصلاة
والسلام.
- ٩- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية: علم البديع، دار النهضة العربية، ١٤٠٥هـ/١٩٧٥م. ص: ٨٨.
- ١٠- الخطيب التبرزي تحقيق الحسبي حسن عبد الله، الكافي في العروض والقوافي، مكان الطبع
وتاريخه غير مؤرخين.
- ١٠- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية: علم البديع...، ص ٦٨.
- ١١- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ط الثانية عشرة منشورات دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ١٢- طه أبو كريش، في النقد الأدبي الحديث: تاريخه وقضاياه ١٤١١هـ/١٩٩٠م اسم المطبعة غير
مذكور.